تداعى الغرب لأوزوالد شبنجلر

بقلم :
الأستاذ فؤاد محمد شبل
الوزير المفوض بوزارة الخارجية

١ — حياته وعرض عام

ولد أوزوالد شبنجلر فى مايو سنة ١٨٨٠ بمدينة بلاكنبرج آم هارز . وكان أبوه يدعى برنهرد ، وكان مسيحياً بروتستنتياً . وتلقى دروسه الثانوية بمدرسة « هلة » . ثم انتقل إلى جامعة برلين ، حيث تخصص فى العلوم الطبيعية . ثم التحق بجامعة ميونخ ولبث فيها بعض الوقت ثم عاد إلى جامعة برلين ثانية .

وقد عمل بعد حصوله على الدكتوراه عام ١٩٠٤ مدرساً ، حتى عام ١٩١١ . واستوطن — منذ ذلك الحين — مدينة ميونخ ، وفيها شرع فى تأليف كتابه « تداعى الغرب » Der Untergang des Abendlande الذى أتمه عند نشوب الحرب العالمية الأولى . وقد طبع الجزء الأول بميونخ فى يوليه عام ١٩١٨ ، ونشر الجزء الثانى عام ١٩٢٢ . ثم أعاد نشر الجزء الأول منقحاً عام ١٩٢٢ .

وقد أمضى حياته فى التأمل والدرس ، وعاش وحيداً عزباً ، فى عزلة رهيبة حتى وافته منيته فى ٥ مايو سنة ١٩٣٦ .

وإذا كان شبنجلر قد قام بتأليف طائفة من الكتب إلا أن جُماع شهرته كتابه « تداعى الغرب » .

وحظى الكتاب باعجاب الجمهور وحاز إقباله ؛ إلا أن علماء التاريخ والمعلقين السياسيين ، انتقدوا آراءه انتقاداً مراً . ولما تولى الحزب الاشتراكى الوطنى (النازى) الحكم ، استفحلت حملات النقد عليه لتباين آرائه مع فلسفة الحزب السياسية .

والكتاب دراسة لفلسفة التاريخ . وقد بدأه — مثلما فعل المؤرخ « فيكو » Vico قبله وأرنولد توينبى بعده بسنوات قليلة — بمقارنة الحضارة الغربية الحديثة بحضارة العالم اليونانى الرومانى . وقاده بحثه إلى تعيين دورة حياة للحضارات لا مناص لها من المرور عبرها . وحكم بأن فى وسع المؤرخ — إستناداً على هذه الفكرة — إعادة تشييد الماضى والتنبؤ بالشكل الروحى الذى تتخذه الحضارة الغربية . ويرى شبنجلر أن الحضارة الغربية لما تستكمل مراحل حياتها بعد . ونجده يتكهن بفترة دوامها ويرسم خط سيرها ، ويصف منجزاتها .

ومهما يكن من اختلاف آراء الباحثين بالنسبة لأفكار شبنجلر ؛ فالكل يجمع على عبقريته . ويعتبر تشخيصه صفات الحضارات المختلفة وسجاياها ، الميدان الذى تألقت فيه عبقريته . وما تزال آراؤه فى هذا الشأن فى الذروة من العمق والطرافة . وقد توصل إلى نتائجه

بفضل بدهيته الوقادة . وأصبحت أفكاره تقف موقف المتحدى لغيره من الباحثين الذين أوتوا طبائع تختلف عن طبيعته ومواهب عقلية تغاير عقليته ، لاقتفاء أثره وتوكيد اكتشافاته — أو دحضها — بوساطة الفحص والاستقصاء المنهاجيين .

وفى الحق ؛ أصبحت النتائج التى توصل إليها شبنجلر بعبقريته موضع دراسة الباحثين لا على هدى التاريخ والاجتماع فحسب ، ولكن بالاستعانة كذلك بكشوف علم « الأجناس البشرية » لدراسة ثقافات الشعوب وتتبع المظاهر التى اتخذتها للافلات من عدوان الثقافات الأجنبية واقتحامها مناطق نفوذها وتأثيراتها . وبهذا أصبحت نظريات شبنجلر موضع تقييم علمى دقيق .

بيد أن نقطة الضعف فى كتاب « تداعى الغرب » هى الحتمية التى تستند عليها فكرة الكتاب بأسرها . إذ تعنى أن الإنسان فى أفعاله مسير لا مخير . فنجده يؤمن بأن التاريخ يفرض قالباً محدداً تتخذه كل حضارة ، ولا حيلة للبشر فيه . كما أنه يتزمت فى تفكيره ولا يؤمن بالتجربة ولا يسعى للافادة منها . وهنا يفترق عن توينبى الذى يكافح جاهداً فى سبيل إخضاع قوانينه التاريخية للتجربة ويهرع إلى تغييرها وتحويرها كلما آنس ضعفها التطبيقى أو عجزها — بالتجربة — عن الوفاء بأغراض دراسته .

ويسود التشاؤم نظرة شبنجلر تجاه طالع الحضارة الغربية ومصيرها . فان الحضارة الغربية — فى عرفه — قد خلفت وراءها مرحلة الإبداع الثقافى ، وتجتاز الآن مرحلة إجترار الماضى ، وتُقبل على الاستمتاع بألوان الترف الحضارى . فهى — بذلك — تدخل مرحلة التداعى .

ويخلص شبنجلر إلى القول بأن لا أمل للحضارة الغربية فى إنقاذ نفسها من الانهيار المحتوم ومن الانحلال المقدر عليها . ذلك لأن الحضارات تزهر وتذبل مثل الكائنات الطبيعية . ويستحيل تجديد شباب الحضارات المتداعية تجديداً صادقاً : مثلما يتعذر استرجاع شباب الكائنات العضوية .

٢ — اتجاهات شبنجلر الفكرية

يمثل التاريخ — عند شبنجلر — سلسلة متتابعة من الأحداث الفردية المتكاملة ، يطلق عليها « ثقافات » .

ولكل ثقافة طابعها الخاص الذى يسرى فى أوصالها ويمتد فى جميع مراحل تطورها . لكن يجمع بين ثقافة وأخرى ، دورة حياة تتبدى بصورة واحدة فى أوجه النشاط الثقافى . وتماثل هذه الدورة ما نعرفه عن دورة حياة الكائن الحى .

وتبدأ دورة الحياة الثقافية بمرحلة « الهمجية » وهى سمة المجتمع البدائى وطابعه . وتجتاز الدورة طائفة من المراحل متجهة صوب التنظيم السياسى ، ثم تعرج على الفنون والعلوم وغيرها . والدورة — عند بدايتها — صورة فجة غير مصقولة ، لكنها تتطور نحو التفتح والازدهار . فتندفع — من ثم — لبلوغ مرتبة الحضارة العريقة . فاذا ما بلغت تلك المرتبة ، أصيبت بالتحجر ، فآذن ذلك بوصولها مرحلة الانهيار ، الذى ينتهى بها — فى نهاية المطاف — للتردى فى نمط جديد من « الهمجية » يسبغ الاستغلال والضعة على جميع جوانب حياتها . وهنا خاتمة حياتها . ولن نجد بعد ذلك شيئاً جديداً يخلفه هذا الانهيار ؛ بسبب انقضاء أجل هذه الثقافة ، لنضوب معين طاقاتها الابداعية . أضف إلى ذلك ؛ أن هذه الدورة التى تنتظم مراحلها ، لا تقتصر على كونها محدودة ، بل يتحدد كذلك الزمن الذى تستغرقه .

من ذلك يتبين لنا استناد آراء شبنجلر على المذهب الوضعى . فانه يستبدل بالتاريخ نفسه ، أشكال التطور التاريخى الذى ينتظم المراحل التقدمية . وتلك دراسة من نوع العلوم الطبيعية التى تعتمد على التحليل الخارجى

لاستنباط قوانين علمية عامة ، تؤهلها — أى الدراسة — للتكهن بأحداث المستقبل . وعملا بمنهاج البحث الوضعى ؛ تصور الحقائق تصويراً يباعد بين بعضها والبعض الآخر ، بدلا من أن يتسلسل بعضها عن البعض الآخر استناداً على حلقات منتظمة ، تربط بين سلسلة وأخرى .

وهناك أوجه للتشابه بين آراء شبنجلر وتوينبى . والفارق الرئيسى بين الاثنين أن شبنجلر يعزل — عزلا تاماً — بين بعض الثقافات وبعضها الآخر . فمن رأيه ؛ تعذر فهم هذه الثقافات إلا قياساً إلى وجهة نظر المؤرخ من زاوية خارجة عنها . أما بالنسبة لتوينبى ؛ فان انتماء بعض المجتمعات لمجتمعات أخرى ، أمر جوهرى بالنسبة لنظرية توينبى ؛ وفى هذا ما يضمن استمرار التاريخ . أما من وجهة نظر شبنجلر ؛ فلا محل للقول بشىء من قبيل هذا « الانتماء » . ولا توجد أية علاقة إيجابية بين ثقافة وأخرى . لذلك نجد الفلسفة الطبيعية تسرى إلى كل تفصيل من تفاصيل نظرية شبنجلر ، بينما لم تؤثر — عند توينبى — إلا على المبادئ العامة .

وكلمة « حضارة » هى مناط الحكم الذى يصدره شبنجلر على عصره . وعنده أن كلا من روسو وسقراط وبوذا . . . يميز نهاية ثقافة . لأن كلا منهم قد وارى معه فى التراب عصراً ذهبياً يتسم بالعمق الروحى . فان هؤلاء المفكرين يعرضون الحياة بنظرة المثقف ويحكمون عليها بمفهوم العقل . والعقل يحكم ، وقلما تتوارى النفس . وتقديس شبنجلر لأحكام العقل ، يدفعه إلى مناهضة الدين ، لأن الدين يجافى المعرفة العقلية ويضيق ذرعاً بالجدل والدليل العقلى ، بل يقرر قضايا يجب على المؤمن تقبلها سواء وافقت عقله ، أم لفظها . فالدين يعتبر البعيد عن التصديق يقيناً ، ويعد الخارق للطبيعة حقيقة واقعة .

ولسوء الحظ ؛ شغلت الشئون السياسية بال شبنجلر . وغشيت أفكاره السياسية — بالتدريج — خيبة آماله . فلقد تخلى عام ١٩١١ عن وظيفته كمدرس للرياضيات والتاريخ فى مدرسة عليا ، وكان وقتذاك فى الحادية والثلاثين . وقد تنبأ بالحرب ورجا لألمانيا مستقبلا زاهراً بعد انتصارها ، لكنه خشى أن يفسدها النصر فيجر عليها التحلل ؛ مثلما تحللت روما بعد انتصارها على قرطاجنة . ومن ثم ؛ قصد من تأليف كتابه ، هداية حكام ألمانيا سواء السبيل . وقد عكف على الكتابة طوال فترة الحرب الأولى ، وحرم نفسه من جميع متع الحياة بما فيها الزواج . ولما منيت ألمانيا بالهزيمة ، اندفع بكلياته إلى اعتناق النزعة المكيافيلية كفلسفة للحكم .

فنجد النزعة المكيافيلية واضحة فى الجزء الثانى من كتابه « تداعى الغرب » . إذ تضمن عبارات كثيرة قصد منها إظهار الاختلاف البين بين الأساليب السياسية وقواعد الأخلاق . ويصر شبنجلر فى مواضع أخرى من الكتاب على أن قول السيد المسيح « إن مملكتى ليست فى هذه الدنيا » لا يحتاج إلى تأويل . بمعنى أن المثل العليا المسيحية مكانها العالم الآخر لا هذه الدنيا . ولا تتمثل الحقيقة الواقعة فى « الحق » ولا فى « القسط » لكنها تتجلى فى إجراء رومانى أو بروسى أو سياسة ينفذها كرومويل . فان الشخصية — كما يقول شبنجلر — هى التى يحسب لها حساب . فليس الإنجيل هو الذى غزا العالم ، لكن غزاه الاستشهاد المسيحى ؛ ولم يستمد الشهيد قوته من التعاليم ، ولكن من « نموذج » الإنسان على الصليب . ومصداقاً لهذا ؛ لا يؤمن السياسى الأصيل بالعبارات الطنانة ولا يخلط منطق الأحداث بمنطق النظم . فله معتقداته ؛ لكنه كانسان فرد ، لا تشوش عليه المبادئ التهذيبية . فلا يفترق البابوات العظام فى هذا الشأن عن الساسة الإنجليز ، الأمر الذى يثبت تعارض التنفيذ مع الدين والمنحى الخلقى . لكن يقرر شبنجلر أن الحياة — لا الفرد — لا ضمير لها .

وإلى ريبة شبنجلر من المثقفين — ما خلا المشتغلين بالرياضيات — تعزى فكرة إعلائه من شأن فكرة الحصول على أناس ذوى عقول ممتازة عن طريق توليد

السلالات ، لا باللجوء فحسب إلى استقاء العلم من الكتب :

ويقصد بتوليد السلالات الثقافية ، بث التقاليد فى النفوس . فعنده أن أمة من غير تقاليد تفقد أصالتها أى صفتها المميزة . ويذكر من قبيل المثال :

تدريب الوصيف خلال القرون الوسطى ، التعليم فى الأديرة ، تدريب ضباط أركان حرب الجيش البروسى ، المدارس الإنجليزية العامة ، التدريب الجامعى لشغل الوظائف الإدارية فى حكومة الهند ، تدريب رجال الدين الكاثوليك ، فشل بسمارك فى تدريب « صفوة سياسية » أهل لممارسة الشئون الخارجية

ولا يهم فى الأمة ذات التقاليد العريقة أن يتولى أمورها أناس من صميم الشعب أم من الصفوة . لأن التقاليد — لا الأشخاص — هى التى تحكم ، فتمسك بزمام الحكام ، فلا يملكون عنها فكاكاً . ولقد تنبأ شبنجلر بسريان التقاليد البريطانية فى أفريقيا على أيدى المستعمرين البريطانيين ، لكنها ما تلبث أن تزول برحيل البريطانيين . ذلك لأن التقاليد البريطانية نتاج البيئة البريطانية ، فلن يقيض لها العيش إلا فى محيطها .

وأوتى شبنجلر الشجاعة لمناهضة النازيين ونقدهم وتسفيه شعاراتهم . ومن ذلك اعتبار ما تلوكه ألسنتهم عن « الآرية » و « السامية » كلمات فارغة استعاروها من فقه اللغة . ويرى أن فكرة تمكين سيطرة ألمانيا على العالم ، فكرة مضحكة . وقد سجل رأيه ضد النازية فى كتاب عنوانه « ساعة القضاء والقدر » ، واعتقد بعد نشره أنه سينفى من ألمانيا ، لكنه مات عام ١٩٣٦ قبل بلوغ النازيين أوج مجدهم :

ويعاود شبنجلر — المرة بعد الأخرى — الحديث عن موضوع أسماه « المدينة الضخمة » . إذ يعتبر ازدحام المدن بالسكان أسوأ مظاهر الحضارة . ونجده يتنبأ بوصول تعداد المدن الكبرى إلى عشرين مليون نسمة ، واقتطاعها مساحات واسعة من الأراضى الزراعية : لكنه يبدى اغتباطه إذ يتوقع انقضاء نزعة تشييد المدن الضخمة ، تأسيساً على النهاية التى لقيتها المدن الكبرى التى شيدتها الحضارات البائدة .

وإذا كان شبنجلر يبدى تشاؤمه بمستقبل الحضارة الغربية ، لكن من العجب أن تغلب نزعة التفاؤل على تنبؤاته بمستقبل روسيا . فهو يرى فيها منقذ العالم .وعنده أن روسيا ، قد راحت فى ثلاث مناسبات ضحية تأثيرات غربية ألقاها على كاهلها كل من : بطرس الأكبر ،القيصر إسكندر أيام المحالفة المقدسة ، وأخيراً لينين .

وإذا كانت نبوءة شبنجلر بشأن زوال سيادة أوروبا على العالم ، قد تحققت بالفعل ، فهل يعنى هذا انقضاء الثقافة الغربية ؟

وهل تقوم مكانها حضارة أخرى ، فى مستقبل الأيام ؟

وهل وحدة أوروبا الغربية السياسية (وهى ما سعى إلى تحقيقه فعلا : شارل الخامس وفيليب الثانى ولويس الرابع عشر ونابليون وأخيراً هتلر) تجنبها مصير الانحلال الذى تنبأ به شبنجلر ؟

إن أوروبا الغربية تسير حثيثاً نحو الوحدة الاقتصادية وستتلوها الوحدة السياسية . لكن معضلة أوروبا ليست — كما يقول شبنجلر وتوينبى — فى التقدم العلمى والتفوق التكنولوجى ، ولكن تكمن معضلتها فى « تحات » روحها الابداعية ، بما يتضمنه ذلك من انقضاء العصر الذى كانت تفتن فيه العالم فيتبع مناهجها ويعتنق طرائقها ، ويتنسم خطاها ، ويوليها قياده .

ويعرف شبنجلر الفطرة بأنها الكيان الذى يركب فيه إنسان الثقافات العليا ، الانطباعات المباشرة لمشاعره والشكل الذى يترجم فيه أحاسيسه . وفى التاريخ ؛ تنشد مخيلة الإنسان فهم علاقة حياته الذاتية بالعالم القائم أمام ناظريه . وعندئذ يتمكن من استغلال معارفه التاريخية

فى واقع حياته . والإنسان – بكيانه وحياته – جزء من التـــاريخ .

فما هو تاريخ العالم ؟

يجيب شبنجلر بأنه عرض منسق للماضى . هو التعبير عن القدرة على الإحساس بالشكل . بيد أنه مهما يكن من أمر التحديد الذى يسبغ على الإحساس بالشكل ، لا يبلغ فى دقته مبلغ الصورة نفسها .

وسنعرض فيما يلى لطائفة مما أجملناه من آراء شبنجلر .

٣ – الحضارة المجوسية

يطالع الباحث فى تاريخ الحضارات حقيقة مؤداها أن الحضارة السومرية الأكّادية قد زالت عام ١٠٠ ميلادية ، وزالت الحضارتان المصرية والهيلينية حوالى عام ٤٠٠ ميلادية .

فبالنسبة للحضارة المصرية والحضارة السومرية الأكادية ؛ يلاحظ أنهما ظلتا قائمتين فترة بدأت بفجر التاريخ وتقدر بخمسة آلاف سنة .

فى حين انبعثت الحضارة الهلينية منذ أواخر الألف الثانية قبل الميلاد .

ولمـــا كانت الحضـــارة الغربية قد ظهرت – وفقاً لرأى شبنجلر – فى غضون القرن الحادى عشر الميلادى ؛ ينشأ – من ثم – فراغ فى منطقة الشرق الأوسط بين انقضاء الحضارة الهلينية وظهور الحضارة الغربية ، يقدر بسبعمائة سنة .

ويقرر شبنجلر أن حضارة مستقلة لها خصائصها المميزة ، انبعثت فى منطقة الشرق الأوسط ودعاها « الحضارة المجوسية » . ويذكر أنها ظلت مطمورة إلى أن أمكنه هو – أى شبنجلر – إزاحة التراب عنها .

وقد ظهرت الحضارة المجوسية على مسرح التاريخ داخل نطاق « تشكل كاذب » .

وتفسير ذلك :

أنه بعد ما فرض الإسكندر الأكبر سيادة الحضارة الهلينية على مصر وجنوب غرب آسيا ، انتحلت أوجه النشاط الاجتماعى والثقافى فى هذه المنطقة ، صورة هلينية لبثت طوال الألف سنة التى أعقبت عصر الإسكندر . ويقرر أن تلك الحضارة قد لبثت منذ البداية حتى النهاية ، قشرة خداعة تحجب عنها الحقيقة الجوهرية عن وجود حضارة جديدة تتكون وتنمو . ويمكن تقصى نمو هذه الحضارة – كما يقول – فى تاريخ ردود الفعل الشرقية المتعاقبة ضد المنحى التفكيرى الهلينى ؛ لا على الصعيدين الحربى والسياسى فحسب ، ولكن أكثر ما يكون على الصعيد الثقافى متمثلا بصفة خاصة فى الميدان الدينى بأوسع ما تحمله كلمة الدين من معانى .

وأخيراً ترعرعت هذه الحضارة الجديدة – وفقاً لرأى شبنجلر – فى المسيحية والإسلام ، لكنها تتضمن اليهودية والزرادشتية .

ونلاحظ على رأى شبنجلر هذا ، أن الزرادشتية قد ظهرت إبان القرن السادس قبل الميلاد . ويمكن رد ظهور اليهودية إلى القسم الأخير من الألف الثانية قبل الميلاد .

وإذا تجاوزنا عن هذه الملاحظة ؛ نجد شبنجلر يضع أصبعه على طائفة من الحقائق التاريخية الهامة التى لا شبهة فى صدقها :

فأولا : لا مرية فى حدوث سلسلة من الانتفاضات الشرقية ضد السيادة الفكرية والسياسية الهلينية . وقد توجت هذه الانتفاضات بتحول العالم الهلينى نفسه إلى المسيحية ، ثم تحول نصف العالم المسيحى – بعد ذلك – إلى الإسلام .

ثانياً : حقيقة أن المسيحية والمقائد الدينية الشرقية الأخرى التى نافستها فى ميدان التبشير الدينى فى العالم الهلينى ، قد تبدت أمام أتباع الحضارة الهلينية فى ثوب

هلينى . لكن هذا الرداء الجذاب كان يخفى وراءه جسما غريباً عن الهلينية ، بحيث أن اعتناق المسيحية كان يعنى فى الواقع تحلل الحضارة الهلينية .

ثالثاً : انبعث فى الواقع شىء جديد فى جنوب غرب آسيا عقب بداية العصر المسيحى . إذ أصبحت اللهجة الشرقية للغة الآرامية ، واسطة أدبية لأديان جنوب غرب آسيا الثلاثة : اليهودية (فى جناحيها البابلى) والمسيحية ، والصابئة .

فهل تشير هذه الدلائل إلى وجود حياة جديدة فى المنطقة فى ظل السيادة الهلينية ، مما يؤيد فرض شبنجلر ؟

أجاب المؤرخ كريستوفر داوسون Christopher Dawson (صفحة ٣٨٢ من كتابه The Dynamics of World History) عن هـــذا السؤال ناقداً نظرية شبنجلر بقوله « إن العناصر الطريفة فى الحضارة الهلينية الأكثر حداثة ، يتأتى ردها بالتأكيد إلى تأثيرات شرقية لكن هذه التأثيرات لم تأت من الطاقات المنبعثة من شعب جديد ، فانها وفدت من شعوب أقدم ، يعتبر تقدمها الثقافى أقدم من ارتقاء الهلينيين » . ويقول بموضع آخر « إن الأناجيل المسيحية — فى صورتها الأولى — تنتمى إلى المرحلة الأخيرة للثقافة اليهودية الآرامية ، أعظم مما تنتمى للهلينية » .

وللعقيدة الزرادشتية إبان العصر المسيحى ، مقدمات يمكن إرجاعها إلى بداية القرن السادس قبل الميلاد ، على الأقل . وحقاً ؛ فان جميع العناصر الأساسية التى استخدمها شبنجلر لصياغة فكرة « الحضارة المجوسية » تترابط مع الحضارتين السورية والإيرانية . وهـــذا ما يقره جميع المؤرخين وتعترف به الجماعات التى أدمجها شبنجلر فى نطاق ما دعاه بـ « الحضارة المجوسية »

٤ — فكرة شبنجلر عن التشكال

تعتبر فكرة شبنجلر عما أسماه بـ « التشكال » Pseudomorphosis (ويقصد بها التكوين الثقافى الخداع) واحداً من أجل آرائه . فانها تلقى ضوءاً على العلاقة بين حضارة تابعة والمجتمع الذى استجلبها إلى ميدانه .

وتفسير ذلك :

عندما تتفاعل حضارتان الواحدة مع الأخرى ، قد يكون التقاؤهما على منزلة غير منتظمة . إذ قد تكون إحداهما — وقت التلاقى — أقوى من الأخرى التى قد تكون بدورها ذات طاقة أعظم ابداعاً . وفى ظل هذا الموقف ، تجبر الحضارة الأعظم ابداعاً على مواءمة نفسها — ظاهرياً — مع الحضارة الأقوى فى تشكلها الثقافى . مثلها فى ذلك ، مثل السرطان البحرى الذى يشكل نفسه فى قوقعة ليست قوقعته الأصلية .

بيد أن الباحث ينزلق إلى الضلال إن أخذ بالمظاهر على علاتها . إذ يجب عليه — كما يقول شبنجلر — أن يتطلع إلى ما تحت السطح ، ويبحث ما يقع تحت المظاهر وأن ينظر بعين الاهتمام إلى الفارق بين الأثنتين .

ويستعين شبنجلر بفكرة « التشكال » فى محاولته الإبانة عن الصورة التى يتخذها — منذ بداية العصر المسيحى — تاريخ حضارة فى العالم القديم ، تقع غرب الهند . فان توسع الحضارة اليونانية شرقاً وجنوباً إبان عصر الإسكندر الأكبر وبعده ، قد وضع « تلبيسة » — سياسية وثقافية وجمالية — على جنوب غرب آسيا وعلى مصر . وتبعاً لذلك ؛ اضطرت الحضارة المجوسية (وهى حضارة نشأت وفقاً لافتراضه فى بداية العصر المسيحى) اضطرت — خلال القرون الأولى من وجودها — إلى حجب نفسها بوساطة التنكر فى زى يونانى . ولم تفصح عن حقيقتها إلا فى مرحلة تالية . وذلك وقتما استطاعت تجميع قوة كافية مكنتها من اختراق القشرة اليونانية . بيد أن عين الباحث الفاحصة فى قدرتها أن تستشف وجودها تحت السطح ، منذ لحظة وجودها تحت سطح الأرض إبان الفصل الأول من تاريخها .

وما الحضارة التى دعاها شبنجلر بـ « المجوسية » إلا الحضارة السورية . وأن مقاومة الثقافة الهلينية قد تبدت فى انبعاث مذهبين دينيين يخالفان الأرثوذكسية اليونانية والكاثوليكية الغربية ، وهما

١ ــ المينوفيستية : وهى المذهب القائل بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح (الطبيعة الإلهية) .

٢ ــ النسطورية : وهى المذهب الذى ينكر ألوهية السيد المسيح والسيدة مريم ، لكنه يؤله الكلمة .

لكن الضربة القاضية التى كالتها الثقافة الشرقية للثقافة اليونانية ، تجلت فى إنبعاث الإسلام الذى قضى على الإمبراطورية الرومانية فى الشرق الأوسط . فكان أن انحسر نفوذ الحضارة اليونانية وعجز الفكر اليونانى عن التأثير فى الفكر الإسلامى إلا بمقدار . هذا وقد تم تلاقى الثقافتين الإسلامية واليونانية ، سلمياً .

وتؤيد أحداث التاريخ فكرة شبنجلر عن التشكال ونذكر فى هذا الصدد مثالين :

الأول : أن اللغة العربية قد نفذت إلى جوهر الفكر الفارسى . فكان الظن أن العربية تحل مكان الفارسية ؛ لكن الفارسية قد استمدت من التراث العربى طاقة مكنتها من استعادة شبابها المفقود ، فأصبحت لغة آداب زاحمت العربية فى العالم الإيرانى . وتأيد إنبعاث الثقافة الإيرانية فى ثوب جديد فى فرض الشاه إسماعيل الصفوى مذهب الشيعة الإثنى عشرى على رعاياه . فبات للفارسيين مذهب دينى مميز بالإضافة إلى لغة خاصة . وهذا ما لم يتح لفارس من قبل ؛ منذ تحول الفارسيين من الزرادشتية إلى الإسلام ، بعد انقضاء عصر الدولة الساسانية .

الثانى : على الرغم من إعتناق سكان أمريكا اللاتينية الكاثوليكية ؛ إلا أنه يشاهد فى جواتيمالا ومدينة المكسيك ، روح وأساليب العقيدة الدينية السابقة للمسيحية .

٥ ــ مقتطفات من كتاب « تداعى الغرب »

١ ــ مصر والعالم القديم :

تبدأ حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ــ فى مصر وبابل ــ حياة عقيدتين دينيتين عظيمتين . ففى إبان عصر الأسرة الخامسة المصرية (٢٤٥٠ ــ ٢٣٢٠ قبل الميلاد) التى أعقبت عصر بناة الأهرام العظام ، ذوت عقيدة « حورس ــ الصقر » التى كان الاعتقاد بأن روحه تستقر فى شخص الملك الحاكم . وانزوت العقائد المحلية فى زاوية النسيان . ولا يستثنى من ذلك ديانة « تحوت » التى كان مركزها مدينة هرموبوليس (الأشمونين ــ قرب ملوى) . وتبدت عقيدة الشمس متمثلة فى رع . وقد دأب كل ملك على إقامة هيكل لرع فى الجانب الغربى من قصره ، إلى جانب المعبد الملحق بمدفنه . وكانت تصور بالمدفن ، حياة الملك الرمزية من وقت ولادته حتى ساعة دفنه . أما هيكل الإله ، فهو رمز الطبيعة الأبدية العظيمة . فكان الزمان والمكان والوجود والقدر والعلة ، تنتصب جميعها وجهاً لوجه فى هذا الصرح الضخم المزدوج الذى لا نظير له فى أى بناء فى العالم . ويصل إلى كل منهما طريق مغطى . وبينما يصاحب الطريق الموصل إلى قدس « رع » نقوش بارزة تصور سلطان الإله الشمس على عالمى النبات والحيوان وسيطرته على تغيرات الفصول ؛ فليس ثمة صنم للرب ولا معبد ، لكن يوجد فحسب مذبح من المرمر يزين الشرفة الضخمة . ويتقدم الفرعون داخلا من الظلام ويقف على مكان مرتفع لتحية الإله العظيم الصاعد إلى كبد السماء فى الشرق . فلم يعد الفرعون هو تجسد الربوبية ، وليس هو إبن الإله ــ وفقاً للاهوت الدولة الوسطى . ورغماً عن جميع ألوان المجد الماضية ، يقف الفرعون أمام الرب ، صغيراً ضئيلا تحول إلى مجرد خادم للاله .

ولبثت معتقدات الفلاح – خارج هذا المجال – كما كانت عليه منذ الأزل ، لا تتغير ولا تتحول . لكن فى حين كان هناك فصل جليل من التاريخ الدينى ينطلق فى المدن فوق رأسه ، طفق هو يتعبد إلى الأرباب ذوات الرؤوس الحيوانية ، إلى أن حل عصر الأسرة السادسة والعشرين ، فتبوأت عقيدة الفلاح مكان الصدارة فى معترك المعتقدات الدينية .

بيد أن ثمة فئة تؤدى – فى تردد بالغ – دورها التاريخى تجاه غيرها . إذ كان يوجد فوق ديانة الريف البدائية ، ديانة شعبية كذلك ؛ تلك هى ديانة صغار الخلق المتوارين فى المدن والأقاليم . فكلما بزغت ثقافة – مثلما حدث إبان عصر الدولة الوسطى المصرية والعصر البرهمى الهندى والعصر السابق لسقراط فى اليونان والسابق لكنفوشيوس فى الصين والعصر الباروكى فى أوروبا – كلما ضاقت دائرة أولئك الذين يستحوزن على الحقائق الفاصلة لعصرهم ، بحسبانها الحقيقة ؛ وليست مجرد اسم وصوت :

فكم من الذين عاشوا مع سقراط وأوغسطين وباسكال قد فهموهم ؟

فالدين – مثل كل شىء آخر – ينتصب كهرم بشرى يستدق كلما ارتفع إلى أعلى ، حتى يصل فى النهاية ذروة الثقافة فيغدو كاملا ، ثم يأخذ فى التداعى شيئاً فشيئاً .

وفى مصر ؛ شاهدت فترة الاصلاح (فى نهاية الدولة القديمة) وحدانية أساسها الشمس . وهى وحدانية شيدت دعائمها لتصبح عقيـدة خاصة بالمثقفين . أما الفلاحون والدهماء فقد لبثوا عاكفين على عبادة الأرباب والربات ذوات الرؤوس الحيوانية ، باعتبارها تجسدات – أو خدم – لـ « رع » الإله الواحد . وتضمنت عبادة « رع » الاهتمام بدراسة الكون . وفى منف أسفر الجدال اللاهوتى عن تحوير عقيدة بتاح لتنسجم مع عقيدة «رع» ولكن فى صورة « بتاح » ، وكان يعتبر فى منف المبدأ الرئيسى للخلق .

وما حدث بمصر ؛ حدث نظيره تماماً فى عصر يوستنيان وشارل الخامس . وذلك وقتما حققت روح المدينة تفوقها على روح الأرض . وهكذا ؛ تكاملت ذاتية العقيدة وباتت موضع فحص العقل ، ومن ثم إنبعثت الفلسفة .

وإن الدولة الوسطى المصرية لأقل أهمية – من الناحية العقائدية – من الدولة القديمة . ومنذ عام ١٥٠٠ قبل الميلاد إنبعثت ثلاثة أديان تاريخية :

الأول : الديانة الفيدية فى البنجاب .
الثانى : الديانة الصينية الأولى على النهر الأصفر
الثالث : الديانة القديمة فى شمال بحر إيجه .

ويصعب علينا أن نحزر تفاصيل العقيدة الدينية البدائية العتيقة . ومناط الفكرة الطريفة المتصلة بالربوبية – وهى ما كانت المثل الأعلى لهذه الثقافة – الجسم البشرى الذى يشكل على صورة بطل يقف وسطاً بين الإنسان والإله .

وأجدر بنا أن نضع جانباً ملاحم البطولة والطقوس الدينية الشعبية ، حتى يغدو فى مكنتنا – إلى حد ما – تعين أبعاد هذه العقيدة القديمة . ويتضح من الاستقراء أن الدين العتيق يحظى بوحدة داخلية . فان أساطير القرن الحادى عشر قبل الميلاد المتصلة بفكرة إزهار النبات فى الربيع ، تذكرنا مآسيها القدسية بالأساطير الحديثة عن موت « بالدر » و « فرانسيس » .

وتقع فترة الديانة الصينية بين عامى ١٣٠٠ و ١١٠٠ قبل الميلاد ، وتشمل قيام أسرة تشو Chou . ويجب بذل أقصى قدر من العناية فى دراستها بسبب ما يبدو على المفكرين الصينيين (من نوع كنفوشيوس ولاوتزى) من عمق وتعالم . ويبدو من الخطورة بمكان عظيم ، محاولة إصدار حكم – مهما يكن من أمره – عن

وجود قسط — أى قسط — من الروحانية فى الديانة الصينية . ورغماً عن ذلك ، فلا بد وأن تكون مثل هذه الروحانية وهذه الأساطير قد وجدت وقتاً ما . ولن تزودنا المدارس الفلسفية المغرقة فى إتجاهاتها العقلية والتى ترعرعت فى المدن الكبرى؛ لن تزودنا بشىء ذى قيمة . ومع ذلك ؛ تعامل الخاتمة الكنفوشيوسية عن الديانة الصينية كما لو كانت بدايتها . وذلك إذا لم نذهب أبعد من ذلك فنصف حركة التوفيق بين المذاهب الدينية إبان عصر أسرة « هان » بأنها « ديانة الصين » .

وعند الصينيين ؛ كانت السماء والأرض نصفين للكون ، غير متعارضين ، وكل منهما إنعكاس لصورة الآخر . ولا نجد فى هذه الصورة : الثنائية المجوسية ، ولا وحدانية القدرة العاملة . لكنها عبارة عن مبدأين هما « اليانج » و « الين » : يفهمان على أساس الدورية أكثر مما يفهمان على كونهما قطبين . وتأسيساً على هذه الفكرة ؛ تضم جوانح الإنسان نفسين :

الأولى : الـ « كوبى » Kwei وهـذا اصطلاح يعادل « الين » . وينتمى إلى الأرض ، فهو مظلم بارد يتحلل مع الجسم ، ويرمز إلى الناحية السلبية فى الحياة .

الثانى : هى الـ « سين » Sen أى « اليانج » . وتنتمى إلى السماء فهى مضيئة ودائمة ، ويرمز الاصطلاح إلى الناحية الإيجابية فى الحياة .

ويتفرع عن كل من « الين » و « اليانج » حشد من المظاهر توجد خارج متناول الإنسان . فان ثمة فيالق من الأرواح تحفل بها الماء والهواء والأرض ، تحركها جميعها « الين » و « اليانج » . وما حياة الطبيعة والإنسان — فى الحقيقة — إلا نتاج هاتين الوحدتين الأساسيتين .

لكن يتركز جميع هذا فى كلمة أساسية واحدة هى الـ « تاو » Tao . وأن الصراع بين « اليانج » و « الين » فى الإنسان هو « تاو » (أى طريق) حياته . وأن نداة رحمة ضروب النفس هى « تاو » الطبيعة . ويحوز العالم الـ « تاو » نظراً لحيازته كل من : النبض والإيقاع والدورية . ويمتلك العالم التوتر « لى » li نظراً لمعرفته الـ « تاو » . ومن التاو تستخلص النسب الثابتة ليستخدمها العالم فى مستقبل أيامه . وأن : الزمن، القدر، الاتجاه ، العنصر ، التاريخ ... هذه كلها — إن أخذت فى الاعتبار مع رؤيا العصور « تشو » Chou الأولى — تقع فى نطاق كلمة « تاو » . فينتمى إليها طريق الفرعون عبر الممشى المظلم الذى يقوده إلى قدس الأقداس .

لكن رغم ما تقدم : تنأى الـ « تاو » عن أية فكرة تتعلق باخضاع الطبيعة .

٢ — اليهودية :

كان أزهر عصور اليهودية ، فترة تقع خلال الخمسمائة سنة الأولى من العصر المسيحى . فلقد انتشر أتباعها جغرافياً من إسبانيا إلى شانتونج . هذا هو عصر الإمارة اليهودية وزمن إزدهار الطاقات الدينية المبدعة . فمن المعروف جيداً ؛ أن اليهود كانوا فى تلك الأيام : زراعاً وصناعاً وساكنى مدن صغيرة . وكانت الأعمال التجارية فى أيدى المصريين واليونانيين والرومانيين أى أعضاء العالم القديم .

لكن انبعث حوالى عام ١٠٠٠ ميلادية موقف جديد كل الجدة . إذ ألفى الجانب الغربى من الجماعة اليهودية نفسه — فجأة — فى خضم الحضارة الغربية الفتية . وكان اليهود — مثل البارسيين والبيزنطيين والمسلمين — قد تحضروا وتمازجوا مع غيرهم من الناس ، فى حين كان العالم الألمانى الرومانى يعيش فى الأرياف . ووقتما أصبح اليهود زراعاً ، كانت شعوب أوروبا الغربية ما تزال على حالتها البدائية . فانبعثت روح الكراهية والازدراء بين الفريقين ؛ ولم يكن مبعثها التميز العنصرى ولكن التفاوت فى طور الثقافة . فاندفعت الجماعة اليهودية فى جميع الدساكر والمدن الريفية ، إلى تشييد أحيائها الشعبية الكبيرة « الغيتو » Ghettos وكانت المدن اليهودية — من الناحية الثقافية والعمرانية — أكثر

تقدماً من المدن القوطية . بنحو ألف سنة . وهذا يماثل ما كانت عليه الحال أيام السيد المسيح ، وقلما كانت المدن الرومانية تقف متشامخة وسط القرى اليهودية المتناثرة على شواطئ بحيرة طبرية .

وكانت هـــذه الأمم الفتية تلتصق بالتربة وترتبط بفكرة أرض الوطن . بينما أن الجماعة اليهودية محرومة من الأرض ، لكن كان ثمة شيء يشد أعضاءها بعضها إلى البعض الآخر ؛ شيء لا يتمثل فى التنظيم الحازم ، ولكن مناطه دافع ميتافيزيقى إلى أبعد الحدود . وبدا هذا الدافع لأعضاء الجماعة اليهودية كشيء لا يدرك وهو أقرب أن يكون طيفاً ، أو بالأحرى هو معنى من المعانى . وفى هذه الفترة نشأت أسطورة « اليهودى التائه » .

ولقد فقدت — تماماً — يهودية الجماعة الأوروبية الغربية صلتها بالأرض الطلقة ، بينما احتفظت بصلتها بها فى الأندلس الإسلامية . فلم يعد فى أوروبا الغربية يهود مزارعون . على أن الحى اليهودى « الغيتو » كان شظية من مدينة كبيرة ، لكنها شظية تحفل بالبؤس ، انقسم سكانها شيعاً ، فكان منهم النبلاء كالبراهمة فى العقيدة الهندية كما كان منهم حثالة كالمنبوذين سواء بسواء .

وجدير بالذكر ؛ أن تكالب اليهود على القبض على ناصية شئون المال والأعمال ليس ظاهرة يختصون وحدهم بها دون سائر أجناس العالم ، فان البارسيين يقومون فى الهند بالدور الذى يؤديه اليهود فى العالم الأوربى الأمريكى ، ويتولاه اليونانيون والأرمن فى جنوب أوروبا . كما أن الصينيين فى جنوب شرق آسيا وفى كاليفورنيا والهنود فى أفريقيا الشرقية ، هدف عداء السكان الأصليين بسبب استفحال نشاطهم الاقتصادى ، وهو شعور يعانيه اليهود وأصبح يدعى بـ « مناهضة السامية » . لكن لليهودية طابع آخر ه العنصر والدين والتطور التاريخى ، مما طبع اليهودية بطابع خاص غدا علماً عليها وبات موضع كراهية بقية العالم ، فأصبح اليهود فى كل أمة يعيشون بين ظهرانى الأمة — أية أمة — لكنهم منفصلون عنها فى كل شيء ولا يربطهم بالمجتمع الذى يعيشون بين ظهرانيه ، إلا المصلحة المادية المجردة ، وهى رابطة سرعان ما تتحلل وقلما يبدو للجماعة اليهودية عدم جدواها لها .

٣ — النظرية السياسية :

ليست النظرية السياسية الاجتماعية إلا واحدة من قواعد السياسات الحزبية ، لكنها قاعدة ضرورية . فان السلسلة المتشامخة التى تمتد من روسو إلى ماركس ، لها طراز يخافيها ويتمثل فى فريق السوفسطائيين القدماء لغاية أفلاطون وزنو Zeno .

ذلك فى حالة العالم الغربى ؛ أما فى حالة الصين ، فيجب الاتجاه إلى الأدبيات الكنفوشيوسية والتاوية لاستخلاص المذاهب التى تناظر المذاهب الغربية ؛ ويكفى إيراد اسم « موه - تى » Moh-ti الاشتراكى النزعة .

وفى المصنفات الأدبية البيزنطية والعربية التى ظهرت خلال العصر العباسى ، يتبين أن الاتجاهات الراديكالية وإن تشبعت بالآراء الدينية ؛ فقد كان لها تأثير كبير فى المنحى التفكيرى ، وكانت قوى دافعة فى جميع أزمات القرن التاسع . وهذه القوى الدافعة كانت قائمة فى مصر والهند من قديم ، وهذا ما أيدته الأحداث فى عصر الهكسوس وفى عصر البوذا .

وسواء أكانت هذه المذاهب « قويمة » أو «خداعة» فيجب أن نكرر القول مؤكدين بأن هذا الأمر لا معنى له للتاريخ السياسى . فمن قبيل المثال ؛ تنتمى الماركسية إلى مجال الحوار الأكاديمى والمجادلات العامة حيث يشترك فيها كل فرد ، وهو يعتبر نفسه دائماً مصيباً بينما يعتبر مخالفه مخطئاً مارقاً عن العقيدة . وأننا لنجدن أنفسنا فى الوقت الحاضر فى عصر نثق فيه ثقة لانهائية بعصمة العقل ، وأصبحت فيه الآراء العامة الكبرى :

الحرية ، العدالة ، الإنسانية ، التقدم ؛ ذات حرمة مقدسة .

وإن النظريات الكبرى قد غدت كتباً مقدسة . ولا تستند قوتها على الاقناع عن طريق استخدام المقدمات المنطقية . ذلك لأن جمهرة الحزب فى أى بلد من البلاد ؛ لا تحرز الطاقة على النقد وتخلو من ذلك الفريق الذى فى وسعه قيادة البقية قيادة ناجحة . لكن الجمهرة تسير وراء زعامة الحزب بدافع من العبارات المعسولة . وتنقاد الجمهرة وراء هذه الكلمات فتستشهد فى سبيلها عند الاقتضاء وتلقى بنفسها فى غيابات السجون ويرسل بها إلى المنفى وهى سعيدة . ومن ثم تعتبر وثائق سياسية مثل « العقد الاجتماعى » و « البيان الشيوعى » محركين على أقصى قدر من القوة فى أيدى رجال أقوياء الشكيمة ، أصبحوا يمسكون بمقاليد الحزب بين أيديهم وفى وسعهم تكييف معتقدات الجماهير الخاضعة لتأثيراتهم واستخدامها لبلوغ أهدافهم .

على أنه نادراً ما تمتد — امتداداً زمنياً — قوة هذه المثل العليا المجردة أبعد من فترة قرنين من الزمان . ولا تلوح نهايتها بسبب ظهور فسادها ، ولكن بفعل ضجر الجماهير . والشعور بالضجر هو الذى قضى على آراء روسو منذ أمد ، وهو الذى سيقضى على ماركس قريباً . ذلك لأن الناس لا يهجرون هذه النظرية أو تلك ، لكنهم ينبذون الإيمان بنظرية من أى نوع ويتخلون معها عن التفاؤل المشوب بالعاطفة الذى اتسم به منحى القرن الثامن عشر التفكيرى . إذ دأب مفكرو هذا العصر على تصور أن تطبيق الأفكار يقود إلى تحسين الحقائق غير المرضية . وأن أفلاطون وأرسطو ومعاصريهما عندما تولوا تحديد وتوليف الأنواع المختلفة من التنظيم القديم للحصول على نتيجة جميلة وحكيمة ، استجاب العالم بأسره وسعى أفلاطون نفسه إلى تغيير مجرى حياة « سيراكوز » وفقاً لـ « وصفة » أيديولوجية . فكان الخراب مصير المدينة .

ويبدو لى بالمثل ؛ أن تجربة فلسفية من هذا النوع هى التى أخلت باستقرار أمور الولايات الجنوبية ودفعتها إلى أحضان استعمار دولة « تسين » لها . كما أن المتعصبين اليعاقبة الذين نادوا بمبادئ الثورة الفرنسية عن الحرية والمساواة والإخاء قد ألقوا بفرنسا بين براثن حكومة الإدارة وما تلاها .